**مجلة مدرسة الإسكندرية**

**عدد ٧**

# قضية الاختيار

من خلال الأصحاح التاسع من رسالة روميا

**القس مرقس داود**

# قضية الاختيار (٢)

من خلال الأصحاح التاسع من رسالة رومية

**القس مرقس داود**

كاهن كنيسة الشهيد العظيم مارجرجس - سبورتنج - الإسكندرية
frmorcosdaoud@yahoo.com

**ملخص ما سبق نشره في العدد السابق:**

بدأنا في العدد السابق بطرح قضية الاختيار، وما تثيره من تساؤلات. ثم عرضنا بعض الآيات التي ترتبط بالقضية، وبعض الآراء التي لا نتفق معها حول قضية الاختيار والتعيين السابق. ثم بدأنا في مناقشة القضية من خلال عرض بعض آيات الكتاب المقدس التي تؤكِّد على الدور الإنساني في نوال الخلاص، وشرح الأصحاح التاسع من رسالة القديس بولس الرسول إلى أهل رومية، معتمدين في ذلك على القديس يوحنا الذهبي الفم، الذي نستطيع اعتباره الأكثر تعبيرًا عن الفكر الكنسي الصحيح في هذه القضية. وقد قمنا بتقديم ملخص للأصحاحات الثمانية السابقة للأصحاح التاسع، من أجل فهم أفضل للسياق الذي جاء فيه الأصحاح. ثم توقَّفنا في شرح الأصحاح التاسع عند الآية (رو٩: ١٦). «**لأنه يقول الكتاب لفرعون: إنِّي لهذا بعينه أَقمتُكَ، لكي أُظهِرُ فيك قوتي، ولكي يُنَادَى باسمي في كل الأرض.**» (**رو٩: ١٧**)

إذ جاء ذِكْر موسى، ورحمة الله معه بأن أراه الله لمحة من مجده كتأكيدٍ على استمرار مَسيره مع موسى ومع شعب إسرائيل (خر٣٣: ١٨-٢٣)، تطرَّق القديس بولس الرسول إلى الحديث عن فرعون وقساوته في مقاومته ورفضه لخروج بني إسرائيل من مصر بقيادة موسى.

إن كانت رحمة الله هي الدافع لاختيار يعقوب دون عيسو، وهي الدافع لأن يرى موسى لمحة من مجد الله، فقد تجلَّت هذه الرحمة في قمة صُوَرها في موقف خروج بني إسرائيل من مصر، رغم قساوة ومقاومة فرعون بكل قوته. ولكي يُظهِر الله رحمته وقوته ومجد اسمه، فقد استخدم فرعون وقساوته، كما جاء في سفر الخروج: «ولكن لأجل هذا أَقمتُكَ، لكي أُريكَ قوتي، ولكي يُخبَر باسمي في كل الأرض.» (خر٩: ١٦)

**«فإذًا هو يرحم مَنْ يشاء، ويُقَسِّي مَنْ يشاء.» (رو٩: ١٨)**

تأتي هذه الآية كاستنتاج وتعليق نهائي على الحديث السابق عن موسى وفرعون. لكن رغم أن ما ذُكِرَ عن فرعون كان متعلِّقًا بقساوته ومقاومته لله ولموسى ولخروج شعب بني إسرائيل من مصر، إلاَّ أن الله استخدم هذه القساوة ليُعَظِّم اسمه وقدرته من ناحيةٍ، ورحمته ورأفته من ناحيةٍ أخرى.

فمن جهة اسمه وقدرته، كان موقف خروج بني إسرائيل من مصر هو أكبر المواقف في تاريخ هذا الشعب، بل نستطيع القول أن هذا الموقف كان بمثابة شهادة الميلاد له. فقبل هذا الموقف جاء بنو يعقوب إسرائيل إلى مصر كعائلة كبيرة قِوامها حوالي السبعين نفسًا، ثم زاد عددهم واستُعبِدوا للمصريين مدة أربع مئة وثلاثين سنةً، إلى أن جاء زمن الخروج حيث تجمَّع هؤلاء المستعبدون ليصيروا شعبًا كبيرًا، ليس فقط من جهة العدد، لكن الأهم من جهة خوف واحترام الشعوب كلها - بما فيها المصريون - لهم، لا لشيءٍ إلاَّ عمل الله معهم. هكذا تَعَظَّمَ اسم الله، وتعظَّمَتْ قدرته، أمام شعبه، وأمام باقي الشعوب، وهو الأمر الذي صار أيضًا لصالح بني إسرائيل، إذ كان خوفهم في قلوب كل الشعوب التي سَمِعَتْ بما عمله الله معهم (يش٢: ٩-١١).

أمَّا من جهة رحمته ورأفته، فقد تَجَلَّتْ قمة رحمة الله ومحبته واختياره لهذا الشعب في موقف الخروج (خر٣: ٧-١٠؛ تث ٤: ٢٠، ٣٧)، حتى إنه صار الموقف الذي أمر الله شعبه أن يتذكَّروه على الدوام، وأن يَذكُروه لأولادهم لئلا ينسوا عمل الله ورحمته معهم (خر١٣: ٣، ٨). وكان عندما يعاتب الله شعبه لابتعادهم عنه، غالبًا ما يبدأ بأن يُذَكِّرهم بإخراجه لهم من مصر رغم مرور

مئات السنين على هذا الموقف (قض٢: ١-٢؛ قض٦: ٧-١٠؛ ١صم١٠: ١٨، ١٩؛ إر٢: ٥-٧). كما كانت صلوات الأنبياء والملوك وقادة الشعب غالبًا ما تبدأ بتَذكِرة الله بمراحمه عند إخراجه لهم من مصر (خر٣٢: ١١-١٣؛ إر٣٢: ٢١؛ ١مل٨: ٥٣؛ نح ٩: ٩-١٢).

إذًا استشهاد القديس بولس الرسول بقساوة فرعون، لا يخرج عن إطار سياق حديث الله عن رحمته مع موسى ومع شعب بني إسرائيل، بل يرتبط به ارتباطًا وثيقًا.

ولا يفوتنا أن نؤكِّد أن الله لم يكن هو سبب قساوة فرعون، كما قد يُفهَم بالخطأ من هذه الآية، وذلك للأسباب الآتية:

- قساوة فرعون شرٌّ، أما الله فهو صانع الخيرات، وغير مجرَّبٍ بالشرور، وهو لا يُجرِّب أحدًا بها (يع١: ١٣). لذلك فحاشا أن يُنسَب له سبب قساوة فرعون!
- بالرجوع إلى حديث سفر الخروج عن قساوة فرعون، نجد بعض الآيات قد ذَكَرَتْ أن فرعون قَسَّى قلبه، هو نفسه بنفسه (خر٥: ٢؛ خر٥: ٦-٩؛ خر٧: ١٣، ١٤، ٢٢، ٢٣؛ خر٨: ١٥، ١٩، ٣٢؛ خر٩: ٧، ١٧، ٣٠، ٣٤، ٣٥؛ خر١٤: ٥)؛ والبعض الآخر ذَكَرَتْ أن الله قَسَّى أو شَدَّد قلب فرعون (خر٧: ٣؛ خر٩: ١٢؛ خر١٠: ٢٠، ٢٧؛ خر١١: ١٠؛ خر١٤: ٤، ٨). وهو ما يعني أن فرعون كان غليظ القلب، وهو نفسه السبب في قساوة قلبه، لكن الله استخدم هذه القساوة لكي يتمجَّد اسمه أمام المصريين، ويتعظَّم خلاصه لبني إسرائيل: «ولكنِّي أُقسِّي قلب فرعون وأُكثِّر آياتي وعجائبي في أرض مصر. ولا يسمع لكما (موسى وهارون) فرعون حتى أجعل يدي على مصر، فأُخرِج أجنادي، شعبي بني إسرائيل من أرض مصر بأحكامٍ عظيمةٍ. فيعرف المصريون أَنِّي أنا الرب حينما أَمُدُّ يدي على مصر وأُخرِج بني إسرائيل من بينهم» (خر٧: ٣-٥). إذًا كان العناد والقساوة هما اختيار فرعون بكامل إرادته الحرة.

- أمَّا من جهة اللّه فقد كان على علمٍ مُسبَّقٍ بقساوة فرعون، بإرادته الحرة، دون أن يكون اللّه سببًا لها. لذلك قيل في سفر الخروج: «ولكنِّي أَعلَم أن ملك مصر لا يَدَعُكم تمضون ولا بيدٍ قوية، فأمُدُّ يدي وأضرب مصر بكل عجائبي التي أصنع فيها. وبعد ذلك يُطلِقُكم» (خر٣: ١٩، ٢٠)؛ «وقال الرب لموسى: لا يسمع لكما (موسى وهارون) فرعون لكي تَكثُر عجائبي في أرض مصر. وكان موسى وهارون يفعلان كل هذه العجائب أمام فرعون، ولكن شَدَّدَ الرب قلب فرعون، فلم يُطلِق بني إسرائيل من أرضه» (خر١١: ٩، ١٠). هكذا نفهم أن اللّه كان يَعلَم مُسبَّقًا بقساوة فرعون، التي اختارها بكامل إرادته، لكن اللّه استخدم هذه القساوة لحساب خطة خلاصه لشعبه ومجد اسمه، وهذا ما تعنيه عبارة «شَدَّدَ الرب قلب فرعون».

**وللقديس إيرينيئوس** تعليقٌ على قساوة فرعون، وعلى أن اللّه ليس سببًا لها، وذلك ردًّا على أتباع ماركيون، الذين حاولوا إظهار أن اللّه هو الذي أوجد الشر، لأنه قَسَّى فرعون وعبيده[1]: "يقول (أتباع ماركيون): اللّه قَسَّى قلب فرعون هو وعبيده. فهؤلاء الذين يَدَّعُون صعوبة مثل هذه الآية، لم يقرأوا في الإنجيل هذه الفقرة التي فيها ردَّ الرب على تلاميذه عندما سألوه: «لماذا تُكَلِّمهم بأمثالٍ؟ فأجاب وقال لهم: لأنه قد أُعطِيَ لكم أن تعرفوا أسرار ملكوت السماوات، وأمَّا لأولئك فلم يُعطَ. فإن مَنْ له سيُعطَى ويُزاد، وأمَّا مَنْ ليس له فالذي عنده سيُؤخَذ منه. من أجل هذا أُكلِّمهم بأمثالٍ، لأنهم مبصرين لا يُبصِرون، وسامعين لا يسمعون ولا يفهمون. فقد تَمَّتْ فيهم نبوة إشَعْيَاء القائلة: تسمعون سَمْعًا ولا تفهمون، ومبصرين تبصرون ولا تنظرون. لأن قلب هذا الشعب قد غَلُظَ، وآذانهم قد ثَقُلَ سماعها. وغَمَّضوا عيونهم لئلاَّ يُبصِروا بعيونهم، ويسمعوا بآذانهم، ويفهموا بقلوبهم، ويَرجِعوا فأَشفيهم. ولكن طوبى لعيونكم لأنها تبصر، ولآذانكم لأنها تسمع» (مت١٣: ١٠-١٦). لأن اللّه هو

[1] هكذا جاء عنوان هذا الفصل الذي قمنا بترجمته.

نفسه (الذي يُبارِك آخرين) يصيب بالعمى أولئك الذين لا يؤمنون، والذين يستهينون به. تمامًا مثل الشمس، التي هي صنعة الله، فالبعض لا يحتملون ضوءها لسبب ضعف أو مرض في عيونهم. أمَّا بالنسبة للذين يؤمنون بالله ويتبَعُونه، فإنه يمنحهم استنارة للعقل أعظم وأكمل. وقياسًا على ذلك يقول الرسول: «الذين فيهم إله هذا الدهر قد أعمى أذهان غير المؤمنين، لئلاَّ تضيء لهم إنارة إنجيل مجد المسيح، الذي هو صورة الله» (٢كو٤: ٤). وأيضًا: «وكما لم يستحسنوا أن يُبقُوا الله في معرفتهم، أسلمهم الله إلى ذهنٍ مرفوضٍ ليفعلوا ما لا يليق» (رو١: ٢٨). ويتحدَّث أيضًا عن ضد المسيح، فيقول بوضوحٍ: «ولأجل هذا سيرسل إليهم الله عمل الضلال، حتى يُصَدِّقوا الكذب» (٢تس٢: ١١).

لذلك في الوقت الحاضر أيضًا،[٢] إذا كان الله، وهو يَعلَم عدد الذين لا يؤمنون لأنه يَعلَم مُسبَّقًا بكل الأشياء، هو الذي أسلمهم إلى عدم الإيمان، وهو الذي أشاح بوجهه عن أُناسٍ من هذا النوع، تاركًا إيَّاهم في الظلمة التي اختاروها هم أنفسهم لأنفسهم؛ فما العجب إذا كان (الله) أيضًا، في ذلك الوقت (الماضي)، قد أسلم فرعون إلى عدم الإيمان، إذ لم يكن ليؤمن أبدًا (بسبب عناده وقساوته بإرادته الخاصة) هو والذين معه؟! حسبما تكلَّم الله الكلمة مع موسى في العليقة قائلاً: «وأنا متأكدٌ [ولكني عالمٌ] أن ملك مصر لا يَدَعُكم تمضون، إلاَّ [ولا] بيدٍ قويةٍ» [٣]. وعن السبب أن الرب تكلَّم بأمثالٍ، وأصاب بالعمى إسرائيل حتى إنهم مبصرون ولا يبصرون؛ فذلك من حيث إن الرب قد عَلِمَ روح عدم الإيمان في داخلهم (اليهود). وهو نفس السبب الذي من

---

[٢] عاش القديس إيرينيئوس في القرن الثاني الميلادي من ١٤٠م إلى ٢٠٢م، ونعتقد أنه يقصد بتعبير "الوقت الحاضر"، وقت كتابة رسالة القديس بولس الرسول إلى أهل رومية، حيث تكرَّر تعبير «أسلمهم الله» ثلاث مرات عن الأمم الذين رفضوا معرفة الله بحسب الناموس الطبيعي: أسلمهم إلى النجاسة، وإلى أهواء الهوان، وإلى ذهنٍ مرفوضٍ (رو١: ٢٤، ٢٦، ٢٨). ونعتقد أن القديس إيرينيئوس، إذ عاش خلال القرن الثاني الميلادي، فقد اعتبر وقت كتابة رسالة رومية وقتًا حاضرًا بالنسبة له، على أساس أنه ليس ببعيدٍ عنه زمنيًا، مقارنةً بحادثة مقاومة فرعون لخروج بني إسرائيل، والتي كانت في القرن الخامس عشر قبل الميلاد تقريبًا.

[٣] هذه الآية من (خر٣: ١٩)، وقد قمنا بترجمتها عن الإنجليزية كما جاءت في النص، بينما في الترجمة البيروتية جاءت بالاختلافات الموجودة فيما بين الأقواس.

أجله قَسَّى الله قلب فرعون، حتى إنه بينما يرى أن الذي أخرج الشعب هو إصبع الله[٤]، لم يكن ليؤمن، بل غَرِقَ في بحر من عدم الإيمان، مستقرًّا على فكرة أن خروج هؤلاء (الإسرائيليين) تمَّ بقوةٍ سحريةٍ، وأنه لم يكن من عمل الله أن البحر الأحمر أعطى مسلكًا للشعب، بل حَدَثَ هذا بمجرد أسباب طبيعية."[٥]

**«فستقول لي: لماذا يلوم بعد؟ لأن مَنْ يقاوم مشيئته؟ بل مَنْ أنت أيُّها الإنسان الذي تُجَاوِب الله؟ ألعلَّ الجِبْلة تقول لجابلها: لماذا صنعتَني هكذا؟ أم ليس للخزَّاف سلطانٌ على الطين، أن يصنع من كتلةٍ واحدةٍ إناءً للكرامة وآخرَ للهوان؟ فماذا؟ إن كان الله، وهو يريد أن يُظهِر غضبه ويُبَيِّن قوته، احتمل بأناةٍ كثيرةٍ آنية غضبٍ مُهَيَّأةً للهلاك. ولكي يُبَيِّن غنى مجده على آنية رحمةٍ قد سَبَقَ فأعدَّها للمجد، التي أيضًا دعانا نحن إيَّاها، ليس من اليهود فقط بل من الأمم أيضًا.» (رو٩: ١٩-٢٤)**

بعد ما ذَكَرَه القديس بولس الرسول عن أن الرب «يُقَسِّي مَنْ يشاء»، مشيرًا إلى فرعون، يتوقَّع أسئلة تَفرِض نفسها على أيِّ قارئٍ أو سامعٍ لكلامه: «إن كان الله هو الذي يُقسِّي، فلماذا بعد ذلك يلوم مَنْ قَسَّاه؟ وإن كان الله قويًّا هكذا، فمَنْ يقاوم مشيئته؟ كيف يدين الله مَنْ قَسَّاه هو؟»

ونستطيع أن نستخلص إجابة القديس بولس الرسول على هذه الأسئلة في النقاط التالية:

### أ. ليس لأحد أن يجادل الله

بدأ الرسول ردَّه: «بل مَنْ أنت أيُّها الإنسان الذي تُجَاوِب الله؟». نقطة البداية هي أنه ليس للإنسان، المخلوق المحدود في الفهم والمعرفة وكل شيءٍ، أن يُسَائِل الله الخالق غير المحدود في كل صفاته. ليس هذا قهرًا من الله

---

[٤] خر٨: ١٩

[5] *The Nicene and Post-Nicene Fathers,* edit. by: Schaff, Philip, (Oak Harbor: 1997), *Iranaeus Against Heresies*, Book 4, Ch. 29, p. 502

للإنسان، بل هو وَضْعٌ للأمور في نِصَابها. فالخالق خالق وغير محدود، والمخلوق مخلوق ومحدود. ولا وجه للمقارنة بين هذا وذاك!

يقول **القديس يوحنا الذهبي الفم**: "لقد أراد القديس بولس أن يُسقِط حب استطلاع المعترض (على الله)، الذي هو في غير أوانه، وأن يُسقِط فضوله الزائد، وأن يضع حدًّا لذلك. لقد أراد الرسول أن يُعَلِّم (ذلك المعترض) مَنْ هو الله، ومن هو الإنسان، وإلي أي مدى غير مُدرَك (بالنسبة للبشر) علم الله السابق... إلى أي مدى فوق أفكارنا... إلى أي مدى طاعتنا لله واجبة في كل الأمور. هكذا إذ قام الرسول بتهيئة سامعه، وقام بتهيئة روحه؛ حينئذٍ بدأ في تقديم الإجابة بسلاسة كبيرة، جاعلاً ما يقوله سهل القبول لَدَى سامعه: وهو لم يَقُلْ إنه من المستحيل إجابة أسئلة من هذا النوع، بل إنه من الجسارة أن نثيرها (من الأصل). إذ نحن مُطَالَبون أن نخضع لِمَا يعمله الله، لا أن نكون فضوليين، حتى إذا لم نفهم سببًا لذلك. لأجل هذا قال: «مَنْ أنت أيُّها الإنسان الذي تُجَاوِب ضد[٦] الله؟». هكذا ترى كيف جعل القديس بولس الرسول (سامعه، وفي نفس الوقت سائله) يشعر بضآلته الشديدة، كيف أخمد روحه المنتفخة (بالكبرياء حتى إنه يُجَاوِب الله)!

«مَنْ أنت؟» هل أنت شريكٌ في قدرة الله؟ كلاَّ! هل أنت جالسٌ لتحاكم الله؟! ... لأن تعبير «مَنْ أنت؟» يجعله (السامع) مستصغَرًا أكثر بكثير من تعبير: «أنت لا شيء». ولقد اتخذ الرسول طُرُقًا أخرى ليُظهِر المزيد من غضبه على السؤال (لماذا يلوم بعد؟ لأن من يقاوم مشيئته؟)، فلم يَقُلْ: «مَنْ أنت الذي تُجَاوِب الله؟»، بل «الذي تُجَاوِب ضد الله»؛ وفي هذا قمة المناقضة والمعارضة (لله). لأن مَنْ يقول: 'يجب أن تكون الأمور هكذا، ولا يجب أن تكون هكذا'، فمِثْل هذا الإنسان يُجَاوِب ضد الله! انظر كيف يُخيفهم! وكيف يُرهِبهم! وكيف يجعلهم يرتعدون، عوضًا عن أن يكونوا مُسائِلين لله

---

[٦] جاء الجزء الأول من (رو٩: ٢٠) في الترجمة البيروتية: "بل مَنْ أنت أيُّها الإنسان الذي تجاوب الله؟ بينما في الترجمة الإنجليزية KJV: Nay but, O man, who art thou that repliest against God?. ونلاحظ زيادة كلمة "against" أي "ضد". وفي اليونانية "αντιαποκρινόμενος" بمعنى "يُجَاوِب ضد reply against". وهنا تعليق القديس يوحنا الذهبي الفم سيقوم على أساس هذا الفرق اللغوي عن اللغة العربية.

وفضوليين! هذا ما يفعله المُعَلِّم الممتاز؛ فإنه لا يَتْبَع خيال تلاميذه أينما ذهب، إنما يقودهم إلى فكره، نازعًا الأشواك (من عقولهم)، ليزرع البذرة (أي الفكر الصحيح). وهو لا يجاوب للتو في كل الأحوال، ما يُعرَض عليه من أسئلةٍ."[٧]

إذًا ليس لنا نحن البشر أن نعرف أو نُسَائِل الله عن أحكامه وخططه، التي نثق في صلاحها ودوافعها التي هي المحبة الكاملة مع العدل الكامل في ذات الوقت. وعلى ذلك ليس علينا نحن الطين الذي في يد الفخَّاري إلاَّ أن نطيع الله، مؤمنين به وواثقين في عدله ورحمته.

### ب. الإنسان هو صنعة يَدَيِ الله

بعد أن أنكر القديس بولس الرسول على الذين يُسَائِلون الله عن أحكامه وأعماله، سلوكهم هذا، ذَكَّرَهم بأن الإنسان هو صنعة يَدَي الله: «ألعلَّ الجِبْلة تقول لجابلها: لماذا صنعتَني هكذا؟ أم ليس للخزَّاف سلطانٌ على الطين، أن يصنع من كتلةٍ واحدةٍ إناءً للكرامة وآخر للهوان؟» لذلك ليس لأيِّ إنسانٍ أن يُسَائِل الله أو أن يجادله. وهذا بالتحديد هو سبب استخدام الرسول لِمِثْل هذه التعبيرات، وليس ـ كما يظن البعض ـ أنه قَصَدَ إلغاء دور الإنسان وحرية إرادته.

يؤكِّد ذلك **القديس يوحنا الذهبي الفم** قائلاً: "هنا ليس لاستبعاد حرية الإرادة، قال (الرسول) هذا، بل ليُظهِر إلى أيِّ مدى يجب علينا أن نطيع الله. إذ أنه من جهة مُساءلة الله، يجب علينا أن نكون أقل عُرضة لذلك كمِثْل الطين (في يد الفخاري). إذ يجب أن نمتنع ليس فقط عن المناقضة أو المُساءلة (لله)، بل حتى عن (مجرد) الحديث أو التفكير في ذلك قطعيًّا، وأن نكون مِثْل هذه المادة غير الحية (الطين)، والتي تُطَاوِع يَدَي الفخاري، وتترك نفسها لتتشكَّل في أيِّ اتجاهٍ تقريبًا بحسب ما يروق له (للخزَّاف). وهذه هي النقطة الوحيدة (الطاعة والخضوع الكامل لله دون مناقضة أو مُساءلة) التي أراد (الرسول)

[7] *The Nicene and Post-Nicene Fathers*, op.cit., Homily 16, p. 467

تطبيق التشبيه (الطين والخزَّاف) عليها. وليس أنه قَصَدَ (بهذا التشبيه) الإعلان عن أي قانون للحياة (أن الإنسان مُسَيَّر بلا إرادة حرة كمِثْل طينٍ في يد خزَّافٍ)، بل (قَصَدَ التأكيد على) الطاعة الكاملة والسكوت الواجب علينا.

وعلينا أن نلاحظ هذا في كل الحالات: إننا لا نأخذ التشبيهات (لنُطَبِّقها على الواقع) بالكامل، بل نختار المطلوب منها، ونترك الباقي (باقي تفاصيل التشبيه) جانبًا."[٨]

## جـ. الله مِثْل خزَّاف صاحب سلطان على الطين

استخدم الرسول مَثَل الخزَّاف كتشبيه لله، والطين الذي يُشَكِّله الخزَّاف كتشبيه للإنسان. وقد جاء هذا التشبيه أصلاً في سفر إرميا: «الكلام الذي صار إلى إرميا من قِبَل الرب قائلاً: قُمْ انزِل إلى بيت الفخاري وهناك أُسْمِعُك كلامي. فنزلتُ إلى بيت الفخاري، وإذا هو يصنع عملاً على الدولاب. ففَسَدَ الوعاء الذي كان يصنعه من الطين بيد الفخَّاري، فعاد وعَمِلَه وعاءً آخرَ كما حَسُنَ في عينَي الفخَّاري أن يصنعه. فصار إليَّ كلام الرب قائلاً: أَمَا أستطيع أن أصنع بكم كهذا الفخَّاري يا بيت إسرائيل، يقول الرب؟ هوذا كالطين بيد الفخَّاري أنتم هكذا بيَدِي يا بيت إسرائيل. تارةً أتكلَّم على أمةٍ وعلى مملكةٍ بالقَلع والهدم والإهلاك، فتَرجع تلك الأمة التي تكلَّمتُ عليها عن شرِّها، فأندم عن الشرِّ الذي قصدتُ أن أصنعه بها. وتارةً أتكلَّم على أمةٍ وعلى مملكةٍ بالبناء والغَرْس، فتفعل الشرَّ في عينَيَّ، فلا تسمع لصوتي، فأندم عن الخير الذي قلتُ إنِّي أُحسِنَ إليها به» (إر١٨: ١-١٠).

وقد يُفهَم مبدئيًّا من كلمات القديس بولس الرسول أن الله، كخالقٍ للإنسان، هو الذي يحدِّد مصيره بحسب هذه الخِلقة. وبهذا يكون الإنسان غير مسؤول عن تصرفاته. فإن عاش حياة صالحة أو عاش حياة شريرة، فهذا من الله الذي خَلَقَ الإنسان إمَّا صالحًا أو شريرًا! وبالطبع هذا الأمر غير مقبول، ولم يَقصِده القديس بولس الرسول!

---

[8] Ibid.

ولتأكيد ذلك نبدأ بمراجعة كلمات هذا التشبيه في سفر إرميا، والتي تؤكِّد بكل وضوحٍ على دور الإنسان في تجاوبه مع الله بالتوبة والرجوع إليه، كما تؤكِّد على مشيئة الله الواحدة والثابتة في خلاص الجميع. فيقول الرب على لسان إرميا النبي: «هوذا كالطين بيد الفخَّاري أنتم هكذا بيَدِي يا بيت إسرائيل. تارةً أتكلَّم على أمةٍ وعلى مملكةٍ بالقَلع والهدم والإهلاك، فتَرجِع تلك الأمة التي تكلَّمتُ عليها عن شرِّها، فأندم عن الشرِّ الذي قصدتُ أن أصنعه بها». إذًا الله لا يتكلَّم على أمةٍ بالقلع والهدم والإهلاك، إلاَّ بسبب شرِّها، وهو يتكلَّم بذلك منتظرًا توبة هذه الأمة. فإذا حدث بالفعل أن قَدَّمَتْ هذه الأمة توبةً ورجوعًا عن الشر، فالله أيضًا يرجع عن الشر، لأن ليس له مشيئةٌ أخرى سوى خلاص هذه الأمة، وخلاص الجميع. ومن أعظم الأمثلة على هذا الموقف، ما حدث مع أهل نينوى، حيث أصدر الله عليهم حكمًا ابتدائيًّا بانقلاب مدينتهم بعد أربعين يومًا، إذ صَعِدَ شرُّهم أمام الله. ولمَّا قَدَّموا توبةً، تراجع الله سريعًا عن حُكْمه، لأن حُكْمه، الذي حَمَّلَه ليونان النبي ليُبَلِّغهم به، لم يكن سوى إنذارٍ أخيرٍ، منتظرًا وراجيًا توبتهم، التي حالما كانت، كان فورًا رجوع الله عن حكمه بهلاكهم وانقلاب مدينتهم.

ويُقَدِّم الرب المثال العكسي للحالة السابقة: «وتارةً أتكلَّم على أمةٍ وعلى مملكةٍ بالبناء والغَرْس، فتفعل الشرَّ في عينَيَّ، فلا تسمع لصوتي، فأندم عن الخير الذي قلتُ إنِّي أُحسِنُ إليها به». ونرى هنا أيضًا أن الذي حدَّد مصير الأمة بالهلاك، هو هذه الأمة نفسها، إذ لم تسمع لصوت الله الداعي للتوبة. وينطبق هذا على شعب بني إسرائيل مختار الله، الذي حَفَلَ تاريخه بمقاومة الله وروحه القدوس، وكانت قمة هذه المقاومة هي رفضهم للمسيح وصلبه.

يقول **القديس يوحنا الذهبي الفم**: "وعندما يسترسل (الرسول) ليقول: «أم ليس للخزَّاف سلطانٌ على الطين، أن يصنع من كتلةٍ واحدةٍ إناءً للكرامة وآخر للهوان؟» **لا تظن أن هذا قيل بواسطة القديس بولس الرسول كإشارة إلى الخلق، ولا يَدُلُّ ضمنيًّا على أن (الله) يتحكَّم في إرادة الإنسان؛ بل ليوضِّح سلطان الله واختلاف تدابيره (عن تدابير البشر)**. لأنه إن لم نفهم هذه الآية بهذه

الطريقة، ستترتَّب على ذلك تناقضات متعدِّدة، إذ أنه لو كان هنا يتكلَّم عن الإرادة (عدم حرية إرادة الإنسان)، وعن الناس الأبرار وعمَّنْ هم ليسوا كذلك؛ سيكون (اللّه) هو نفسه صانع هذه الأمور، وسيكون الإنسان خالي المسؤولية. أيضًا في هذه الحالة، سيبدو القديس بولس الرسول في تضاربٍ مع نفسه، حيث إنه دائمًا يعطي مكانةً كبيرةً لحرية الاختيار[٩] (بالنسبة للإنسان)."[١٠]

وللمزيد من فهم مَثَل الخزَّاف والطين، علينا أن نعرف أن الخزف (الطين) هو أصلاً مسحوق أحجار طبيعية تتحوَّل إلى طين أو عجين بإضافة الماء إليه. وجودة الخزف تتوقَّف على مدى نقاوة المسحوق الطبيعي من الشوائب، فإذا وُجِدَتْ الشوائب فى الخزف، فإنه يَسهُل كسره عند تعرُّضه لدرجة حرارة الأفران. هكذا نفهم أن الفخَّاري يصنع إناءً للكرامة أو إناءً للهوان، لا يعني أنه هو العامل الوحيد الذي يحدِّد أن إناءً يصير للكرامة وآخر يصير للهوان، لأن هذا يتوقَّف على نوع الطين نفسه. كما يتوقَّف على الاستخدام الذي ستُستَخدَم فيه الآنية[١١].

أمَّا ما يقصده القديس بولس الرسول من تعبير: «يصنع من كتلةٍ واحدةٍ إناءً للكرامة وآخر للهوان»، فهو أن جميع البشر يشتركون في طبيعةٍ واحدةٍ، لكن كل واحدٍ يسلك سلوكًا خاصًّا بإرادته الحرة واختياره: إمَّا أن يُطيع اللّه ويصنع مرضاته في كل حينٍ، أو أن يعصاه ويقاوم مشيئته. واللّه بسابق علمه يَعلَم بسلوك كل إنسانٍ، وبناءً عليه يستخدم كل إناءٍ - حسب نوعه - في خطته الإلهية لأجل خلاص المختارين، وإن كانت مشيئته هي خلاص الجميع؛ فيرحم

---

[٩] يُرجَى الرجوع إلى مَثَلَيْن من هذه الآيات من رسائل القديس بولس الرسول، اللتَيْن تحدَّثتا عن حرية إرادة الإنسان ومسؤوليته ودوره في خلاص نفسه، وقد أوردناهما في الجزء الأول من المقال الذي سبق نشره في العدد السابق ص٤١. هذا بالإضافة إلى حرص الرسول الواضح على أن تحتوي كل رسالة على وصايا روحية مسيحية عملية سلوكية، لم يكن ليَذكُرها الرسول إن لم يكن يدعو كل مؤمنٍ لأن يسلك فيها بإرادته الحرة مع طلبه لمؤازرة نعمة الله له.

[10] Ibid.

[11] *The Nicene and Post-Nicene Fathers*, op.cit., Homily 16, p. 468
في نفس عظة القديس يوحنا الذهبي الفم على الأصحاح التاسع من رسالة رومية، قَدَّمَ هذا الرأي بأن الآنية تكون للكرامة أو للهوان بناءً على الاستخدام الذي ستُستَخدَم فيه.

ويتراءف ويعطي نعمة لخائفيه وطالبيه، ويستخدم رفض وقساوة المقاومين لحساب خلاص المختارين، مع المسؤولية الكاملة لكل إنسانٍ عن سلوكه سواء كان قبولاً أم رفضًا.

ومِمَّا يؤكِّد ذلك أن الحديث الذي سَبَقَ مَثَل الخزَّاف، كان ينطبق أيضًا، من جهةٍ، على موسى كإناء للكرامة، والذي قال له الله: «إنِّي أرحم مَنْ أرحم، وأتراءف على مَنْ أتراءف». وقد استخدمه الله ليُخرِج شعب الله من أرض مصر، ويصنع العجائب والقوات، ثم يقود هذا الشعب أربعين سنةً في البرية. وقد رأينا أيضًا كيف كان موسى دائم اللجوء لله في أوقات الضيق وتذمُّر الشعب عليه، كما رأينا محبته لشعبه عندما شفع فيهم أمام الله، عندما أراد الله أن يُفنيهم وأن يجعل موسى أمة عظيمة. كما أنه كان مشغولاً بمجد اسم الله، لئلا يقول الأمم إنه أخرج بني إسرائيل من مصر، ولم يُدخِلهم أرض كنعان حسب وعده. ومن جهةٍ أخرى، ينطبق المَثَل على فرعون كإناء للهوان، الذى قيل عنه: «لأنه يقول الكتاب لفرعون: إنِّي لهذا بعينه أَقمتُكَ، لكي أُظهِرُ فيك قوتي، ولكي يُنَادَى باسمي في كل الأرض». وقد رأينا أنه ظلَّ مراوغًا ومقاومًا لله في خروج بني إسرائيل من مصر رغم كل ما رأى من آيات وعجائب. ولم يكتفِ بذلك، بل تجلَّتْ قمة قساوته وإصراره على مقاومة مشيئة الله في خروجه وراء بني إسرائيل، بعد أن خرجوا من مصر عَقِب ضربة الأبكار. فتعظَّم الله بخروج بني إسرائيل من ناحيةٍ، وبغرق فرعون وجيشه ومركباته تحت مياه البحر الأحمر من ناحيةٍ أخرى. ثم جاء الحديث بعد المَثَل أيضًا عن فرعون الذي قيل عنه: «فماذا إن كان الله، وهو يريد أن يُظهِر غضبه ويُبَيِّن قوته، احتمل بأناةٍ كثيرةٍ آنية غضبٍ مُهَيَّأةً للهلاك»، كمثال للهالكين بسبب قساوتهم وإرادتهم الفاسدة سواء من اليهود أم من الأمم[١٢]؛ وعن الذين آمنوا بالمسيح ـ الإسرائيليين الحقيقيين وليس بالاسم والبنوة الجسدية لإسرائيل ـ الذين قيل عنهم: «ولكي يُبَيِّن غنى مجده على آنية رحمةٍ

[12] The Orthodox Study Bible, p. 1539

قد سَبَقَ فأعدَّها للمجد، التي أيضًا دعانا نحن إيَّاها، ليس من اليهود فقط بل من الأمم أيضًا».

## د. أناة الله على فرعون آنية الغضب المُهَيَّأة للهلاك

من اللافت للنظر جدًّا، ولا يجب أن يفوتنا، ما ذَكَرَه الرسول عن أناة الله على فرعون. فرغم ما قيل عن أن الله قد قَسَّى قلب فرعون، ورغم ما أظهره فرعون من عنادٍ وقساوةٍ، **إلاَّ أن الرسول أعلن لنا ـ بوحي الروح القدس ـ أن انتظار الله على معاقبة فرعون بسبب تكرار رفضه لمشيئة الله في خروج بني إسرائيل، لم يكن سوى طول أناة من الله عليه، لعلَّه يقدِّم توبةً**. فإذ لم يستجب، صارت أناة الله سبب دينونة له، حيث كان قد استنفد كل ما قدَّمه له الله من فرصٍ للتوبة (وقد كانت كثيرة في حالة فرعون: فعلى الأقل العشر ضربات، بخلاف لقاءاته الأولى مع موسى وهارون)، وكانت كأس خطاياه قد امتلأت عن آخرها. وبهذا كان مستوجبًا لغضب الله عن استحقاقٍ، وكان قد هيَّأ نفسه للهلاك بعدلٍ، حتى إنه لو عاش إلى الأبد فلم يكن ليُقَدِّم توبةً.

ويقول أيضًا **القديس يوحنا الذهبي الفم** تعليقًا على ذلك: "ما يعنيه (الرسول) هو تقريبًا كما يلي: فرعون كان آنية غضبٍ، أي إنسان ـ بقساوة قلبه الذاتية (الخاصة) ـ قد أشعل غضب الله. لأنه بعد أن تمتَّع بأناة الله الكثيرة، لم يَصِرْ أفضل، بل ظلَّ كما هو بدون تحسُّن (من جهة قساوته). من ثَمَّ دعاه (الرسول) ليس فقط «آنية غضب»، بل أيضًا «مُهَيَّأة للهلاك». إنه (آنية غضب) مُهَيَّأ تمامًا (للهلاك) بالحقيقة، لكن بذاته الخاصة والشخصية. لأن الله لم يَحجِب أيًّا من الأشياء التي قد تُصلِحه، ولا هو (فرعون) حَجَبَ (عن نفسه) أيًّا من الأشياء التي قد تُهلِكُه وتُبعِدُه عن أية مغفرة (من قِبَل الله). مع ذلك ظلَّ الله، رغم أنه عَلِمَ هذا (عَلِمَ مُسَبَّقًا بإصرار فرعون على مقاومة الله بقساوة)، «احتمل بأناةٍ كثيرةٍ»، مُريدًا أن يجتذبه إلى التوبة. لأنه إن لم تكن هذه إرادة الله (توبة فرعون)، لَمَا أطال أناته. لكن لَمَّا لم يستَفِدْ (فرعون) من أناة الله لأجل توبته، بل هيَّأ نفسه للغضب (غضب الله)؛ استخدمه الله في إصلاح آخرين، من خلال ما ناله من عقاب، جاعلاً إيَّاهم (الآخرين) أفضل،

وبهذه الطريقة يُبَيِّن قوته. لأنها لم تكن مشيئة الله أن تظهر قوته هكذا (بهلاك فرعون)، بل بطريقة أخرى: بواسطة عطاياه وإحساناته، التي رآها (فرعون من الله الذي أطال أناته عليه) من قَبْل بكل الطرق الممكنة."[١٣]

### هـ. مجد الله على آنية الرحمة

بنفس القياس، كما كانت قساوة فرعون سببًا في هلاكه، كذلك الذين قَبلوا الإيمان بالمسيح - سواء من اليهود أم من الأمم - فقد شملتْهم رحمة الله لينالوا مجد أولاده في ملكوت السماوات، إذ تجاوبوا مع دعوته وعمل نعمته. إن هذا هو الجانب المشرق من قضية الاختيار. إن هؤلاء المُمَجَّدين - بحسب نعمة الله - هم المعنيون بعمل الخلاص كله، الذي تمَّمه الثالوث القدوس... هؤلاء هم الذين تمتَّعوا به بحسب مشيئة الله الصالحة للجميع.

وبحسب تعليق **القديس يوحنا الذهبي الفم**: "لكن بقوله: «التي سَبَقَ فأعدَّها للمجد»، لم يَعْنِ أن الكل كان من عمل الله (دون مشاركة وتجاوب وقبول من الإنسان). حيث إنه لو كان الأمر كذلك، لَمَا كان هناك مانعٌ من أن يَخلُص الجميع. لكن الله، مرةً أخرى، يُبيِّن سابق علمه، لاغيًا الفرق بين اليهود والأمم. لأنه لم تكن في حالة اليهود فقط أن البعض هَلِكُوا، والبعض خَلُصُوا[١٤]؛ بل مع الأمم أيضًا كان الأمر كذلك. من ثَمَّ لم يَقُل (الرسول): كل الأمم، بل «من الأمم»؛ كما لم يَقُل: كل اليهود، بل «من اليهود». وكما صار فرعون آنذاك آنية غضب بسبب عصيانه الذاتي (النابع من ذاته دون أن يكون لله دخلٌ في ذلك)، هكذا صار هؤلاء (الذين من الأمم) أواني رحمة بسبب استعدادهم الشخصي للطاعة (النابع من داخلهم، وبالتأكيد مؤازرة نعمة الله التي تقود طالبيه، الجاحدين إرادتهم وذواتهم، والطالبين إرادته ومجده). لأنه وإن كان العامل الأكبر هو من الله، إلاَّ أنهم مازالوا مشتركين (مع الله) أيضًا (ولو) بقَدْرٍ ضئيلٍ. لذلك لم يَقُل (الرسول) أيضًا:

---

[13] *The Nicene and Post-Nicene Fathers*, op.cit., Homily 16, p. 468

[١٤] يشير القديس يوحنا الذهبي الفم إلى موقف هلاك البعض من اليهود دون البعض الآخر بعد موقف العجل الذهبي (خر ٣٢)، وقد سبق له أن أشار إليه من قبل في نفس هذه العظة

*The Nicene and Post-Nicene Fathers*, op.cit., Homily 16, p. 465

أواني عمل صالح، أو أواني جسارة (تَجَرأتْ على الله، تُطَالبه بمجدٍ تشعر باستحقاقها له)؛ بل قال: «أواني رحمة»، ليُظهِرَ (الرسول) أن الكل من الله. لأن القول: «ليس لِمَنْ يشاء، ولا لِمَنْ يسعى»، حتى وإن جاء في سياق الاعتراض من بولس الرسول (حيث جاء هذا القول تأكيدًا لِمَنْ ينادون بالتهوُّد بأن الله سمح لموسى أن يرى لمحة من مجده قائلاً إنه يرحم مَنْ يرحم ويتراءف على مَنْ يتراءف)، إلاَّ إنه لا يُسَبِّب صعوبةً. لأنه عندما قال (الرسول) هذا القول، لم يكن يَحرِمنا من حرية الإرادة، بل كان يُظهِر أن الأمر كله ليس من ذواتنا، إذ يحتاج إلى نعمةٍ من فوق. **لأنه لِزامًا علينا أن نشاء، وأيضًا أن نسعى؛ لكن دون أن نثق في عملنا، بل في محبة الله من نحو الإنسان**. وهذا ما عَبَّر عنه (الرسول) في مكانٍ آخر: «ولكن لا أنا، بل نعمة الله التي معي» (١كو١٥: ١٠)."[١٥]

ويقول أيضًا **القديس يوحنا الذهبي الفم**: "من أين إذًا كان البعض أواني غضب، والبعض أواني مجد؟ (والإجابة هي:) من اختيارهم الحُرِّ. لكنَّ الله، إذ هو صالحٌ جدًّا، يُظهِر نفس الإحسان لكِلَيْهما." [١٦]

ويختم القديس بولس الرسول هذا الأصحاح بالاستشهاد ببعض نبوات العهد القديم، التي أشارت إلى دخول الأمم إلى الإيمان بالله، وقبوله لهم ليكونوا هم أيضًا شعبه المختار بصرف النظر عن نسبهم الجسدي. ثم في الأصحاح العاشر أوضح الرسول أن اليهود، برفضهم للمسيح، لم ينالوا البرَّ، إذ اعتمدوا على برِّهم الذاتي من خلال تتميمهم الحرفي الظاهري لأعمال الناموس. لكن البرَّ لا يُدرَك إلاَّ من خلال الإيمان بالمسيح سواء لليهودي أو للأممي، لأنه لا فرق. ثم يأتي الأصحاح الحادي عشر ليعلن أنه رغم رفض اليهود عامةً للمسيح، إلاَّ أن البعض قد آمنوا. كما أعلن الرسول أيضًا أن الله قد استخدم رفض اليهود ليفتح باب الإيمان أمام الأمم، وذلك مع اعتبارَيْن: أولهما، أَلاَّ يفتخر الأمم على اليهود بسبب قبولهم للإيمان، وبسبب قبول الله لهم، لأن اليهود هم الأصل،

[15] *The Nicene and Post-Nicene Fathers*, op.cit., Homily 16, pp. 468, 469
[16] *The Nicene and Post-Nicene Fathers*, op.cit., Homily 16, p. 469

والأمم هي الأغصان التي طُعِّمَت في الأصل. وثانيهما، أن اليهود سيرجعون إلى الإيمان بالمسيح، لينالوا نصيبهم في الخلاص.

أمَّا الأصحاحات من الثاني عشر إلى الخامس عشر فتمثِّل الجانب العملي التطبيقي من الرسالة، كعادة القديس بولس الرسول في رسائله أن يختمها بجانب عملي تطبيقي، إذ لا يفصل الرسول على الإطلاق بين الجانب الإيماني اللاهوتي العقيدي، وبين الجانب العملي التطبيقي.

أخيرًا يختم الرسول الرسالة بتحيات خاصة للكثيرين مِمَّنْ يعرفهم بشكل شخصي في مدينة رومية، فيما يعكس عمق محبته لأولاده وتلاميذه في علاقات شخصية معهم، لكنها في المسيح يسوع.

## ثالثًا: ملاحظات عامة ختامية على قضية الاختيار

على ضوء الشرح السابق للأصحاح التاسع من رسالة رومية، يمكننا أن نستخلص النقاط التالية، والتي تتداخل مع قضية الاختيار التي نحن بصدد تناولها:

١. **مشيئة الله**: الله يريد أن جميع الناس يَخلُصون. وهو يدعو الجميع لهذا الخلاص بحسب مشيئته الصالحة.

٢. **حرية إرادة الإنسان**: الإنسان صاحب إرادة حرة بحسب خلقته على صورة الله ومثاله. فإمَّا أن يتجاوب مع دعوة الله ويقبلها قبولاً عمليًّا بحياة توبة دائمة ومستمرة، فيثبت في الاختيار ويصير من المختارين الذين ينالون الخلاص؛ أو أن يرفض دعوة الله، ولا يتجاوب مع مشيئة الله في خلاصه، فيحيا في قساوة وعناد ومقاومة لمشيئته. وهكذا يسقط من الاختيار، ويصير من الهالكين.

٣. **علم الله السابق**: الله، إذ هو غير محدود وعالم بكل شيءٍ، وهو فوق الزمن؛ يَعلَم مُسبَقًا ما سيعمله الإنسان سواء كان تجاوبًا أو رفضًا.

٤. **خطة الله:** الله في محبته ومشيئته الصالحة في خلاص الجميع، يستخدم سلوك كل إنسانٍ، سواء الذين قَبلوا الدعوة أو الذين رفضوها بإراداتهم الخاصة، ويُدخِل هذا التجاوُب في خطته الإلهية لأجل خلاص المختارين، كما لأجل استيفاء فرص التوبة للهالكين بحسب طول أناة الله.

٥. **الخلاص نعمة مجانية:** الخلاص هو نعمة مجانية مُقَدَّمة من الثالوث القدوس لجميع البشر، لكن الإنسان بإرادته الحرة يقبل الخلاص من خلال إيمان عملي حي مُعَاش في حياة توبة مستمرة. وذلك دون استحقاق من جهة الإنسان، فعطية الخلاص وملكوت السماوات لا ننالها كمَنْ يأخذ المقابل للمقابل.

٦. **دور الإنسان:** الذين عاشوا في الإيمان وحياة التوبة المستمرة، هم الذين جحدوا إراداتهم، التي طالما ما طال الطبيعة البشرية من فسادٍ، وتركوا المجال لعمل نعمة الله لكي تَنفُذ مشيئة الله في حياتهم لأجل خلاصهم. هذا ما صرخ به رب المجد يسوع في تجسُّده، نائبًا عن البشرية: «لتكن لا إرادتي، بل إرادتك». أمَّا مَنْ زاغوا عن طريق خلاصهم ليخرجوا من عِداد المختارين، فأولئك هم الذين اختاروا شهواتهم وإراداتهم وذواتهم، لتعلو فوق إرادة الله في حياتهم.

٧. **ما بين عمل النعمة ودور الإنسان:**

أ. دون الخوض في قضية الجهاد والنعمة، نقول إنه لا تعارض بين كون الخلاص نعمة مجانية، وبين ضرورة قبول الإنسان له بإرادته الحرة، وتفاعله العملي مع الله لأجل نوال هذا الخلاص. ويمكن توضيح هذه الفكرة بقصة لخادم في مدارس الأحد، منذ فترة طويلة، أراد أن يُقَرِّب لتلاميذ فصله معنى الإيمان الذي به ننال الخلاص، فأخرج من جيبه ساعة بكاتينة خاصة به، وقد كانت وقتئذٍ عالية القيمة، ولا يمتلك مِثْلها إلاَّ قليلون. فقال لتلاميذه: "مَنْ يُصَدِّق أنِّي سأُعطي له هذه الساعة القيِّمة، فليتقدَّم ويَمُد يده ويأخذها". فتردَّد جميع الأولاد غير مُصدِّقين أنهم قد يأخذون مِثْل هذه الساعة، إلى أن تجرأ أحدهم، ومَدَّ

يده متوجِّسًا فأخَذها. وبالفعل صارت له! فقال لهم الخادم إن الإيمان هكذا به ننال خلاصنا! وإذا تفحَّصنا هذه القصة، نجد أن التلميذ الذي مَدَّ يده له دورٌ ضئيلٌ جدًّا في نوال الساعة القيِّمة، وهو أنه قد مَدَّ يده ليأخذ الساعة. ولولا هذا الدور لَمَا حَصَلَ على الساعة كباقي زملائه. لكن رغم ذلك لا يمكن أن نفهم أنه بهذا العمل قد صار مستحقًّا لها، بل ستظلُّ هي هدية مجانية من الخادم لتلميذه. هكذا يمكن أن نفهم دورنا في نوال خلاصنا دون إنكار مجانية هذا الخلاص، مع الفوارق الكثيرة بين التشبيه والحقيقة.

ب. لا نقول فقط بعدم وجود تعارض بين عمل النعمة ودور الإنسان، بل أكثر من ذلك نقول بوجود تفاعل وعمل مشترك بين الاثنَيْن Synergy συνεργός. هذا المفهوم هو المفهوم العام الذي به ننظر إلى الآيات المختلفة في الكتاب المقدس، والتي يتحدَّث بعضها عن عمل النعمة المجاني، والبعض الآخر يتحدَّث عن دور الإنسان وحرية إرادته في طلب الخلاص. كما أن هذا المفهوم يحسم قضية الاختيار في أن اختيار الله ليس عشوائيًّا غير مفهوم وغير مبرَّر، بل هو نعمة مجانية يريد الله أن يعطيها للجميع، لكن لا ينالها فعليًّا إلاَّ مَنْ تجاوب بإرادته الحرة، وبإيمانٍ عمليٍّ حيٍّ مُعَاشٍ. ومن الأمثلة التي جاءت في الكتاب المقدس لهذا التفاعل والعمل المشترك بين الله والإنسان Synergy، ما ذَكَرَه القديس بولس الرسول عن نفسه وعن أبلُّوس: «فمَنْ هو بولس؟ ومَنْ هو أبلُّوس؟ بل خادمان آمنتم بواسطتهما، وكما أَعطَى الرب لكل واحدٍ: أنا غرستُ وأبلُّوس سَقَى، لكن الله كان يُنْمِي. إذًا ليس الغارس شيئًا ولا الساقي، بل الله الذي يُنْمِي. والغارس والساقي هما واحدٌ، ولكن كل واحدٍ سيأخذ أجرته بحسب تعبه. فإننا نحن **عاملان** συνεργοί مع الله، وأنتم فَلاَحَة الله، بناء الله» (١كو٣: ٥-٩). ونلاحظ أن بولس أكَّد على أن الغارس والساقي ليسا شيئًا، لأن الله هو الذي يُنْمِي. لكن رغم ذلك قال إنه بواسطتهما (بولس وأبلُّوس، الغارس والساقي)

قد آمن أهل كورنثوس، كما قال أيضًا إنهما عاملان συνεργοί مع الله.

جـ. سُئِلَ **الأب سارافيم ساروفسكي**: ما هي العلاقة بين التدبير الإلهي (الإرادة الإلهية) وبين إرادتنا الحرة؟ وقد جاء السؤال على خلفية قول الرب: «... ملكوت السماوات يُغصَب، والغاصبون يَختطِفونه» (مت١١: ١٢)، وما يبدو من تعارضٍ بين هذا القول، وبين ما نادى به القديس بولس الرسول في رسائله من أن الخلاص لا يعتمد إطلاقًا علينا، وأنه من قَبْل ولادتنا قد حدَّد لنا الله مصيرًا ما أو مصيرًا آخر. وقد جاءت إجابة القديس سارافيم ساروفسكي كالتالي: "حقيقة أن ملكوت الله «يُختَطَف» (يُؤخَذ بالقوة) تَفتَرِض مُسَبَّقًا وجود جهادٍ. وعندما يقول القديس بولس الرسول: «ليس لِمَنْ يشاء»[١٧]، فهو يعني أن جهاد الإنسان (وحده دون نعمة الله) لا يُثمِر ما هو منشودٌ (الخلاص وملكوت السماوات). (لكن) لا بُدَّ من دمج الفكرتين: أن نجاهد، وأن نترجَّى كل شيءٍ من النعمة (الإلهية). ليست جهاداتنا الخاصة هي التي ستقودنا إلى الهدف (الخلاص وملكوت السماوات)؛ لأنه بدون النعمة، جهاداتنا تُثمِر قليلاً. كما أنه ليست النعمة، بدون جهاد، تُثمِر ما هو منشودٌ، لأن النعمة تعمل فينا ولحسابنا من خلال جهاداتنا. الاثنان (النعمة والجهاد) يتَّحدان في الإنسان لكي يُحرِز تقدُّمًا، ويُحمَل نحو الهدف. أمَّا علم الله السابق فهو غير مُدرَكٍ. إنه يكفينا أن نؤمن من كل قلوبنا أنه (علم الله السابق) لا يتعارض أبدًا مع النعمة الإلهية والحق الإلهي، كما أنه لا يتعدى على حرية الإنسان. عادةً تُحَلَّ (الإشكالية) على النحو التالي: الله يرى مُسَبَّقًا ما سيعمله الإنسان بحريته، وبناءً على ذلك يصنع (الله) تدابيره. فالتعيين (التقرير) الإلهي

[١٧] رو٩: ١٦

(لمصير الإنسان) يتوقَّف على حياة الإنسان، وليست حياة الإنسان هي التي تتوقَّف على التعيين (التقرير) الإلهي.'' [١٨]

د. في تفسير **القديس يوحنا الذهبي الفم** لرسالة فيلبي، يتعرَّض للعلاقة بين عمل نعمة الله ودور الإنسان في شرحه للآية: «واثقًا بهذا عَيْنِه أن الذي ابتدأ فيكم عملاً صالحًا يُكَمِّل إلى يوم يسوع المسيح» (في١: ٦)، فيقول: ''انظر كيف أيضًا يُعَلِّمهم (القديس بولس الرسول وأهل فيلبي) أَلاَّ يكونوا مرائين لأنه إذ شَهِدَ عنهم شهادة عظيمة (كما ذَكَرَ في الآيات السابقة عن عطائهم)، أرادهم ألاَّ يشعروا أن (عطاءهم) هذا نابع من ذواتهم، إنما يُعَلِّمهم في الوقت الحاضر أن يُرجِعوا الماضي والمستقبل للمسيح. كيف؟ بأنه لم يَقُلْ: «واثقًا بأنكم كما ابتدأتم تُكَمِّلون». لكن ماذا (قال)؟ ««(الرب يسوع المسيح) الذي ابتدأ فيكم عملاً صالحًا يُكَمِّل». إنه لم يسلبهم (فضل) ما عَمِلوه (لأنه قال قبل هذه الآية: «أنا أفرح لسبب مشاركتكم في الإنجيل»، فهو بوضوحٍ يَنسِب لهم هذا الفعل). كما أنه (في نفس الوقت) لم يَنسِب أعمالهم الصالحة هذه لهم من ذواتهم فقط، بل هي أصلاً من الله. فقد قال: «واثقًا بهذا عَيْنِه أن الذي ابتدأ فيكم عملاً صالحًا يُكَمِّل إلى يوم يسوع المسيح». إنها مشيئة الله (أن يعملوا هذه الأعمال الصالحة، وهو الذي أعطاهم أن يعملوها). وكما لو كان الرسول يقول لهم: أنا أشعر أن هذا لا يتعلَّق بكم (أهل فيلبي فقط)، بل بالذين يأتون من بعدكم. وحقيقةً أنه ليس بالمدح القليل أن يعمل الله في أحدٍ. وإن كان الله 'غير محابٍ للوجوه'، وهو بالحقيقة كذلك، لكنه ينظر إلى نيتنا عندما يساعدنا في الأعمال الصالحة؛ إلاَّ أنه من المؤكَّد أن لنا دورًا في جذبه إلينا (ليعطينا أن نعمل أعمالاً صالحةً). وهكذا حتى من خلال هذه النظرة لا يسلبهم (الرسول) مدحهم (على أعمالهم الصالحة). حيث إنه لو كان عمل الله غير مُمَيِّزٍ (لنية وقصد وإرادة الإنسان)، لَمَا كان

[18] Johanna M. Manley, *The Bible and the Holy Fathers for Orthodox*, p. 609

هناك مانعًا من أن يعمل الله حتى في الوثنيين وكل الناس، أي أنه كما لو كان الله يُحَرِّكنا مِثْل أخشابٍ أو حجارةٍ دون أن يطلب ما هو من جانبنا. وهكذا بقوله: «الله يُكَمِّل»، فإنه أيضًا يمدحهم ثانيةً، هؤلاء الذين اجتُذِبَتْ نعمة الله إليهم، حتى إن الله يساعدهم ليعملوا ما هو أعلى من (قدرة) الطبيعة البشرية. وبطريقةٍ أخرى أيضًا يمدحهم هكذا: 'مِثْل هذه الأعمال الصالحة التي عَمِلتموها لا يمكن أن تكون من البشر (وحدهم)، بل تحتاج إلى دَفعة إلهية'. لكن إن كان الله يُكَمِّل، إذًا لن يكون هناك عمل (أو جَهْد) كثير، بل يكون الإنسان مِقدامًا بالحقيقة لأن الأعمال ستُعمَل بسهولة، إذ هي مُؤازَرة بالله.'' [١٩]

٨. **حياة القديسين**: إن الجدل الدائر، بين مَنْ يقولون بأن الإنسان يكون من المختارين بناءً على إرادته الحرة للحياة الفاضلة، وبين مَنْ يقولون بأن ذلك يكون بناءً على اختيار الله المطلق غير المفهوم وغير المبرَّر، نعتقد أن سببه هو إغفال العلاقة الشخصية بين الإنسان والله، وإعمال العقل لفهم علاقة الإنسان بالله بشكل نظري فلسفي، يُحَوِّل المسيحية إلى غنوسية[٢٠] تقتصر على الفلاسفة والمفكِّرين. بينما لم يكن الأمر كذلك مطلقًا من قبل، فقد كان الكثير من القديسين يحيون المسيحية في أعمق صُوَرها ببساطة متناهية. إن حياة القديسين هي مفتاح أساسي في تناول قضية الاختيار، يأخذنا خارج دائرة الجدل العقلي النظري الفلسفي، إلى واقع حي عملي معاش، حيث دَخَلَ القديسون في علاقة شخصية مع الله... إنها علاقة مَنْ هو واقع تحت نير زمن، ومَنْ هو فوق الزمن؛ المحدود بالزمان والمكان، ومَنْ هو فوق الزمان والمكان؛ المحدود القدرة إلى حد العدم، والقادر على كل شيء الذي يشاء أن يعطي المُعيي قدرةً ولعديم القوة يُكَثِّر شِدةً؛ المائل

[19] *The Nicene and Post-Nicene Fathers,* edit. by: Schaff, Philip, First Series Vol. XIII. (Oak Harbor: 1997), *Homilies on Philippians*, Homily 1, pp. 185, 186

[٢٠] الغنوسية في بعض تعريفاتها وصُوَرها أنها الوصول إلى الله إلاَّ من خلال المعرفة العقلية الفلسفية النظرية.

إلى شر بحسب طبيعته التي نالها الفساد، والقدوس الذي يهب القداسة ويجدِّد الطبيعة الفاسدة.

٩. **الاتحاد بالله**: علاقتنا الشخصية بالله ليست مجرد علاقة خارجية، إنما هي اتحاد بالمسيح بواسطة الروح القدس للتمتُّع بالتبنِّي للآب. لقد تحقَّق هذا الاتحاد بين الإنسان بصفاته، والله بصفاته ـ أولاً وبشكلٍ فائقٍ ـ في المسيح الإله الكلمة المتجسِّد. ثم تحقَّقت لنا إمكانيته (إمكانية الاتحاد بالله) بواسطة الإيمان والحياة السرائرية الكنسية والتوبة المستمرة، من خلال العبادة: سواء الشخصية الخاصة، أو الجماعية الليتورجية العامة.

١٠. **المسيح هو المختار**: يقول كارل بارت Karl Barth[٢١] بأن اختيار الله يتحدَّد أساسًا في شخص الرب يسوع المسيح مخلِّصنا، الذي هو مختار الله بالحقيقة[٢٢]. ويتوافق هذا مع ما جاء في الرسالة الأولى للقديس بطرس الرسول: «الذي إذ تأتون إليه، حجرًا حيًّا مرفوضًا من الناس، ولكن **مختارٌ** من الله كريمٌ، ... لذلك يُتَضَمَّن أيضًا في الكتاب: هنذا أضع في صهيون حجرَ زاويةٍ **مختارًا** كريمًا، والذي يؤمن به لن يُخزَى» (١بط٢: ٤، ٦). **وهكذا اختيارنا نحن للحياة الأبدية مع الله في ملكوت السماوات، يتوقَّف على ثباتنا في الاتحاد بالمسيح كما سبق الحديث في النقطة السابقة.**

١١. **مفاهيم مختلفة للاختيار**: يجب عدم الخلط بين المفاهيم المختلفة للاختيار، فقضية الاختيار التي يثيرها بالأخصِّ الأصحاح التاسع من رسالة رومية هي ـ كما سبق أن ذكرنا ـ قضية عامة ترتبط بخطة الله للخلاص في اختيار شعب إسرائيل، ليأتي منه المخلِّص، ليس لشعب إسرائيل فقط، بل لكل الذين يؤمنون به من كل الشعوب، ليصيروا مختاريه الجُدُد. كذلك يجب عدم الخلط بين اختيار الله الخاص للبعض، من الأنبياء أو من

---

[٢١] كارل بارت (١٨٨٦–١٩٦٨)، يعتبره الغربيون واحدًا من أشهر اللاهوتيين في القرن العشرين. وقد كانت قضية الاختيار إحدى القضايا التي تناولها بتوسُّع في كتاباته.

[22] Ekkehard W. Stegemann, *"Romans 9-11 in Karl Barth's Doctrine of Election"*, Basel, 27 September 2010, P. 5
http://www.vanderbilt.edu/AnS/religious_studies/SBL2007/Stegemann.pdf

التلاميذ أو من الرسل، لأداء رسالة محدَّدة وخاصة؛ وبين اختيار الله العام لكل مَنْ تجاوب مع دعوة الله للخلاص، والتمتُّع بالحياة الأبدية، ليصير من المختارين. ونؤكِّد ثانيةً أنه من جهة مشيئة الله، فهو يريد أن جميع الناس يَخْلُصون وإلى معرفة الحق يُقبِلون (اتي٢: ٤).

١٢. **أحكام الله**: أخيرًا، وإن كُنَّا نؤمن بكل ماسبق، بحسب إيمان الكنيسة الإنجيلي التقليدي الحي، لكننا لا نُقِيم من أنفسنا قضاةً على الناس، ولا على أحكام الله، التي ليس لنا إلاَّ أن نثق فيها باتِّضاعٍ وخضوعٍ، لإيماننا الكامل بحكمة الله ومحبته وعدله ودقة قياسه وفحصه للأعماق. إننا مِثْل مواطنين يخضعون للقانون، وليسوا قضاةً يقضون به.